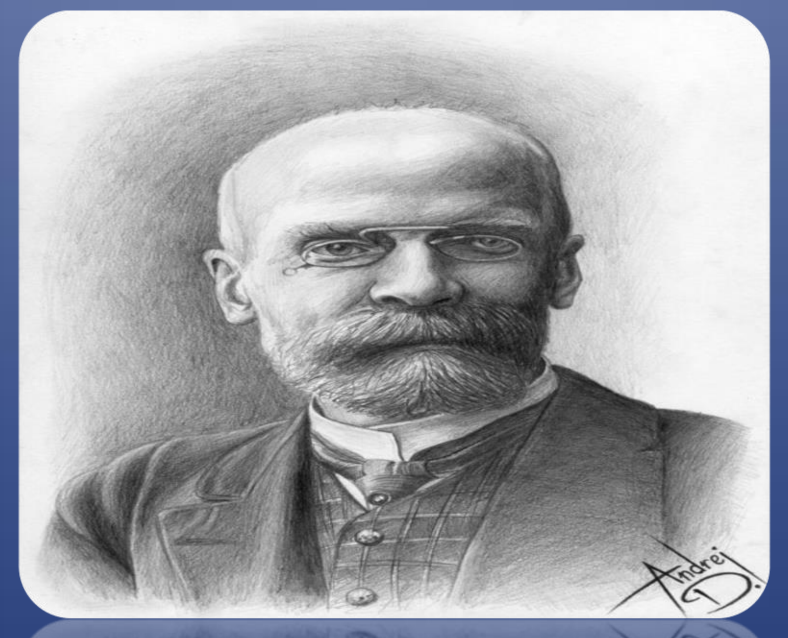
الـــسوسيولوجيا للجميـــع

مؤسس علم الاجتماع الحديث

إميل دوركايم

المنهج التفسيري في دراسة الظواهر الاجتماعية كأشياء

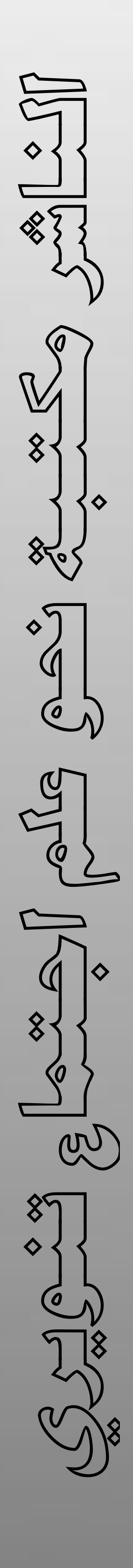
دراسة في علم الاجتماع البنائي



الدكتور

حسام الدين محمود فياض

٢٠١٨



بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الدراسة: مؤسس علم الحديث إميل دوركايم

المنهج التفسيري في دراسة الظواهر الاجتماعية كأشياء

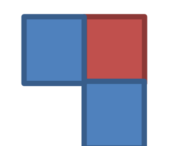
(دراسة في علم الاجتماع البنائي)

تأليف: الدكتور حسام الدين محمود فياض

الناشر: مكتبة نحو علم اجتماع تنويري

الطبعة: الأولى

تاريخ : ٢٠١٨ م



- تمهيد:

يعتبر دوركايم أحد دعائم الحركة العلمية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وهو مؤسس علم الاجتماع الحديث وزعيم المدرسة الفرنسية (الوظيفية) لعلم الاجتماع، وهو من دعا إلى استقلالية هذا العلم عن باقي العلوم والمعارف الأخرى. في حقيقة الأمر ترك لنا دوركايم تراثاً علمياً يتمثل في مجموعة من المؤلفات والمقالات هذا بالإضافة إلى إنشائه المدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع.

تنتمي سوسيولوجية دوركايم بناءاً على التصنيف الابستمولوجي المنهجي لعلم الاجتماع العام إلى منهجية التفسير (***Explication***) في دراسة الظواهر المجتمعية، أي على أساس ارتباطها السببي والعلّي.

بمعنى دراسة المتغيرات المستقلة والمتغيرات التابعة، ضمن رؤية تجريبية استقرائية وعلمية، بغية تحصيل القوانين والنظريات، أو اختزال مجموعة من الظواهر في أقل عدد من العمليات المنطقية الصارمة. ومن ثم، يعد

التفسير من أهم مبادئ الفكر العلمي أو الفكر الوضعي الموضوعي. لذا تشير كلمة السوسيولوجيا إلى هذا الجانب التفسيري الوضعي، بالربط بين مفهومين متضامين هما: علم ومجتمع. بمعنى أن السوسيولوجيا تدرس الظواهر المجتمعية دراسة علمية موضوعية، باستجلاء العلاقات السببية والارتباطية بين المتغيرات المدروسة، سواء أكانت مستقلة أم تابعة.

علم الاجتماع البنائي *Structural sociology*: هو العلم الذي يختص بصفة أساسية بدراسة كيفية تأثير المجتمع في السلوك الفردي والجماعي بدلاً من كيفية تأسيس المجتمع بواسطة الأفراد والجماعات. فالعلم الاجتماع البنائي يتهم على سبيل المثال بكيفية تأثير طبقة الفرد وعائلته (أي الوضع الاجتماعي- البنائي للفرد) على احتمالات نجاحه في المدرسة أو حصوله على وظيفة جيدة.

وهذا السياق ينطبق على الوظيفية صفة بنائية الإجماع، لأنها تؤكد على الدور المحوري الذي يلعبه

الاتفاق (الإجماع) بين الناس على القيم الأخلاقية في المحافظة على النظام الاجتماعي. بمعنى تقوم الوظيفية بدور المحفز لتحقيق صورة المحافظة والثبات داخل المجتمع، فإنها تسعى (الوظيفية) إلى دفع المؤسسات الاجتماعية إلى الاستمرار في التواجد داخل النسق الاجتماعي للقيام بدورها الوظيفي بإشباع وسد الحاجات المرتبطة بالنظام الاجتماعي. وتتمثل وظيفة عالم الاجتماع في محاولة كشف الآثار الإيجابية أو الجيدة والتأثيرات المرتبطة بنظام ما وترتبط هذه الوظيفة بالتبرير التلقائي للنظام القائم المستمر في مجتمع ما وهذا يوضّح أن كل الترتيبات الاجتماعية في مجتمع ما لا بد أن يكون لها فائدة معينة وإلا لا ينبغي أن تستمر في التواجد. ومن جانب آخر وفي ذات السياق البنائي تؤكد الماركسية على الصراع بدلاً من الإجماع في المجتمع، ومن الملامح المميزة للمداخل النظرية والمنهجية لعلم الاجتماع البنائي أنها تسعى إلى التفسيرات العلمية للسلوك الاجتماعي.

منهجياً، يعتمد علم الاجتماع البنائي على منهجية التفسير (***Explication***) في دراسة الظواهر المجتمعية، على أساس ارتباطها السببي والعلّي. بمعنى دراسة المتغيرات المستقلة والمتغيرات التابعة، ضمن رؤية تجريبية استقرائية وعلمية، بغية تحصيل القوانين والنظريات، أو اختزال مجموعة من الظواهر في أقل عدد من العمليات المنطقية الصارمة. ومن ثم يعتبر التفسير من أهم مبادئ الفكر العلمي أو الفكر الوضعي الموضوعي. لذا تشير كلمة السوسيولوجيا إلى هذا الجانب التفسيري الوضعي، بالربط بين مفهومين متضامين هما: علم ومجتمع. بمعنى أن علم الاجتماع البنائي يدرس الظواهر المجتمعية دراسة علمية موضوعية، باستجلاء العلاقات السببية والارتباطية بين المتغيرات المدروسة، سواء أكانت مستقلة أم تابعة.

وهكذا تصنف دراسات دوركايم بأنها تنتمي إلى المقولات النظرية والمنهجية **لعلم الاجتماع البنائي** ***Structural sociology*** الذي يختص بصفة أساسية

بدراسة كيفية تأثير المجتمع في السلوك الفردي والجماعي بدلاً من كيفية تأسيس المجتمع بواسطة الأفراد والجماعات. فالعلم الاجتماع البنائي يتهم على سبيل المثال بكيفية تأثير طبقة الفرد وعائلته (أي الوضع الاجتماعي– البنائي للفرد) على احتمالات نجاحه في المدرسة أو حصوله على وظيفة جيدة.

وهذا السياق ينطبق على الوظيفية صفة بنائية الإجماع، لأنها تؤكد على الدور المحوري الذي يلعبه الاتفاق (الإجماع) بين الناس على القيم الأخلاقية في المحافظة على النظام الاجتماعي. بمعنى تقوم الوظيفية بدور المحفز لتحقيق صورة المحافظة والثبات داخل المجتمع، فإنها تسعى (الوظيفية) إلى دفع المؤسسات الاجتماعية إلى الاستمرار في التواجد داخل النسق الاجتماعي للقيام بدورها الوظيفي بإشباع وسد الحاجات المرتبطة بالنظام الاجتماعي. وتتمثل وظيفة عالم الاجتماع في محاولة كشف الآثار الإيجابية أو الجيدة والتأثيرات المرتبطة بنظام ما وترتبط هذه الوظيفة بالتبرير التلقائي

للنظام القائم المستمر في مجتمع ما وهذا يوضّح أن كل الترتيبات الاجتماعية في مجتمع ما لا بد أن يكون لها فائدة معينة وإلا لا ينبغي أن تستمر في التواجد. ومن جانب آخر وفي ذات السياق البنائي تؤكد الماركسية على الصراع بدلاً من الإجماع في المجتمع، ومن الملامح المميزة للمداخل النظرية والمنهجية لعلم الاجتماع البنائي أنها تسعى إلى التفسيرات العلمية للسلوك الاجتماعي.

منهجياً، يعتمد علم الاجتماع البنائي على منهجية التفسير (***Explication***) في دراسة الظواهر المجتمعية، على أساس ارتباطها السببي والعلّي. بمعنى دراسة المتغيرات المستقلة والمتغيرات التابعة، ضمن رؤية تجريبية استقرائية وعلمية، بغية تحصيل القوانين والنظريات، أو اختزال مجموعة من الظواهر في أقل عدد من العمليات المنطقية الصارمة. ومن ثم يعتبر التفسير من أهم مبادئ الفكر العلمي أو الفكر الوضعي الموضوعي. لذا تشير كلمة السوسيولوجيا إلى هذا الجانب التفسيري الوضعي، بالربط بين مفهومين متضامين هما:

علم ومجتمع. بمعنى أن علم الاجتماع البنائي يدرس الظواهر المجتمعية دراسة علمية موضوعية، باستجلاء العلاقات السببية والارتباطية بين المتغيرات المدروسة، سواء أكانت مستقلة أم تابعة.

وفي النهاية يمكننا تعريف **علم الاجتماع البنائي** بأنه " **العلم الذي يدرس بناء الظواهر الاجتماعية والثقافية وتكوينها وأثرها على أفراد المجتمع، ويتم ذلك من دراسة الأنماط البنائية المهمة للجماعات والنظم التي ترتب السكان طبقياً، وتنظم علاقاتهم، والأنماط البنائية المهمة للأنساق الثقافية، وأنماط الشخصية وأبنيتها** ".

- **ومن أهم مؤلفاته:**

١. حول تقسيم العمل الاجتماعي (١٨٩٣).
٢. قواعد المنهج في علم الاجتماع (١٨٩٥).
٣. الانتحار (١٨٩٧).
٤. التربية الأخلاقية (١٩٠٣).
٥. الأشكال الأولية للحياة الدينية (١٩١٢).
٦. علم الاجتماع والفلسفة (١٩٢٤).

١- المرجعيات الفكرية المكونة للفكر الدوركايمي:

في واقع الأمر هناك أربعة **مرجعيات فلسفية** أساسية ساهمت ببلورة الفكر السوسيولوجي لدوركايم، وهي كالآتي:

- **المذهب العقلاني:** عند ديكارت الذي يرتكز على مبدأ الشك المنهجي أو الشك العقلي، الشك الذي يرمي إلى تحرير العقل من المسبقات وسائر السلطات المرجعية، الشك الذي يؤدي إلى الحقيقة عن طريق البداهة العقلية كالحدس، التحليل، التركيب.
- **فلسفة عصر التنوير:** بظهور فلسفة التنوير وبتقديسها للعقل والحرية وإيمانها بقدرة الإنسان على تجاوز واقعه إلى واقع أفضل وأكثر تطوراً، تغير هذا الوضع وتغير معه الفكر الاجتماعي القائم على الفلسفة اللاهوتية التقليدية، نتيجةً للتطورات المادية التي عايشها المجتمع الأوروبي منذ فترة تتقدم ظهور هذه الفلسفة بستة قرون.

- **الفلسفة الوضعية:** عند أوغست كونت التي أسست الطريق لولادة علم جديد يمتلك الأسس النظرية والمنهجية التي تمكنه وبقوة من دراسة المجتمع وظواهره بغية اكتشاف القوانين واستخلاص التعميمات والقيام بالتنبؤ.
- **النظرية التطورية (العضوية):** عند داروين التي تركت أثرها العميق على منهجية دوركايم فقد ساعدته على استعارة تشبيه ومماثلة المجتمع في نموه وتطوره وأجزائه بالكائن الحي، مما أسس الطريق لظهور بذور الوظيفية الاجتماعية على يد دوركايم.

وهكذا أصبحت الأجواء مواتية ليقوم دوركايم بتقديم أعظم إسهاماته ودراساته في علم الاجتماع، التي حجزت وبقوة مكاناً لعلم الاجتماع بين العلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى.

٢- المجتمع وعلم الاجتماع عند دوركايم:

يعرف دوركايم المجتمع بأنه: نسق اجتماعي مكون من تنظيمات أو مؤسسات اجتماعية باعتبارها تتكون من مجموعات من الأفراد والجماعات التي تسعى إلى تحقيق أهدافها في البقاء والاستمرار وهذا لا يمكن إلا إذا وجدت درجة كافية من التجانس والتربية التي ترسخ وتدعم هذا التجانس.

أما **وظيفة المجتمع** هي تحقيق التجانس، وأدوات التجانس هي التربية (علم الاجتماع التربوي). إن المجتمع هو قبل كل شيء ضمير وهو ضمير المجموعة الذي يجب إيصاله إلى الطفل. وهذا التعريف الذي طرحه دوركايم للمجتمع فيه مبالغة كبيرة في التركيز على فكرة الضمير فأراد إثباتها حتى في استخدامه لها في هذا التعريف بشكل موسع وبذلك يكون قد ألغى وجود العقل والتفكير لدى أفراد المجتمع وألغى كذلك شعور الفرد بالأنا، ومن هذا المنطلق يتضح لنا مدى رغبة وإلحاح دوركايم في

فصل علم النفس عن علم الاجتماع باعتباره علم مستقل بذاته. ويتكون المجتمع من وجهة نظره، مما يلي:

يتكون من نظم متعددة أهمها الأسرة، والنظام الاجتماعي جماعة من الناس تنتظم حول أهداف محددة. فالأسرة النووية على سبيل المثال تنتظم حول إنجاب الأطفال وتربيتهم. ومع تقدم المجتمعات تزداد النظم الاجتماعية عدداً وتعقيداً. ويطلق على هذه العملية التفاضل البنائي ومن الأمثلة على النظم المعقدة **المنشآت الصناعية** التي تطورت عن الصناعات اليدوية الصغيرة.

ويمكن تقسيم النظم إلى أربعة أنساق فرعية:

- اقتصادية (المصانع، الوحدات الإدارية).
- سياسية (الأحزاب السياسية).
- قرابية (الأسر).
- ثقافية و اجتماعية (المدارس ودور العبادة).

أما **علم الاجتماع** فيعرفه دوركايم: " **بأنه الدراسة العلمية للظواهر المجتمعية** " أو " **علم الذي يهتم دراسة الظواهر الاجتماعية والالتزامات الأخلاقية الجمعية، خاصة تلك**

الظواهر، التي تمارس نوعاً من إلزام والقهر على الفرد ليسلك سلوكاً معيناً داخل الجماعة أو المجتمع .

٣- تقسيم دوركايم لعلم الاجتماع:

صنف الدراسات الاجتماعية في ثلاثة موضوعات رئيسية:

– **المورفولوجيا الاجتماعية *Social Morphology*:** تهتم بدراسة البناء الاجتماعي. كما تشمل على دراسة لجغرافية البيئة وعلاقة ذلك بالتنظيم الاجتماعي. وكذلك دراسة السكان من حيث كثافتهم وتوزيعهم.

– **الفسيولوجيا الاجتماعية *Social Physiology*:** تهتم بالوظائف التي يؤديها هذا البناء في أجزائه المختلفة، والتي تتضمن دراسة العمليات الديناميكية كالعقيدة، والأخلاقيات، والقانون، والحياة الاقتصادية.

– **علم الاجتماع العام *General Sociology*:** أي العلم الشامل الذي يجمع النتائج والقوانين العامة التي تصل إليها فروع علم الاجتماع مهما تباينت مقدمات تلك النتائج وأساليب استنباط تلك القوانين. وهكذا يرى دوركايم أن

دراسة علم الاجتماع للظواهر الاجتماعية أدى إلى انقسام علم الاجتماع إلى فروع بعدد الظواهر الاجتماعية، الأمر الذي أدى إلى ظهور علوم الاجتماع الخاصة كعلم الاجتماع السياسي، والتربوي، والديني، والجنائي، والصناعي، الاقتصادي، الأسري، المعرفي، الريفي، الحضري، العسكري، الطبي، الرياضي، الثقافي ... إلخ، وتصبح مهمة علم الاجتماع العام حينئذ ربط النتائج العامة التي تصل إليها هذه الفروع، والوصول إلى القوانين التي تفسر الحياة الاجتماعية بصفة عامة.

٤- أسس الدراسة ومنهجية البحث عند دوركايم:

ينظر دوركايم إلى علم الاجتماع من حيث كونه يهتم بدراسة المجتمع وما ينبعث عنه من ظواهر دراسة علمية وصفيه تحليلية. ولكي يتحقق هذا فإنه لابد من منهج علمي يستطيع بفضله الوصول إلى قوانين الظواهر.

* **قواعد المنهج في علم الاجتماع عند دوركايم:** يظهر ذلك جلياً في كتابه (قواعد المنهج في علم الاجتماع)، حيث أرسى دوركايم علم الاجتماع على مجموعة من القواعد، مثل: ملاحظة الظواهر المجتمعية على أساس أنها أشياء أو موضوعات مادية، يمكن إخضاعها للملاحظة الخارجية. وتنحصر تلك القواعد، فيما يلي:

- القاعدة الأولى دراسة الظواهر الاجتماعية كأشياء خارجية، وفي هذا النطاق، يقول دوركايم: " إن الظواهر الاجتماعية تشكل أشياء، ويجب أن تدرس كأشياء، لأن كل ما يعطى لنا أو يفرض نفسه على الملاحظة يعتبر في عداد الأشياء. لذا يجب عينا

أن ندرس الظواهر الاجتماعية في ذاتها، في انفصال تام عن الأفراد الواعين الذين يتمثلونها فكرياً، ينبغي أن ندرسها من الخارج كأشياء منفصلة عنا ". وفي النهاية يرى دوركايم إن هذه القاعدة تنطبق على الواقع الاجتماعي برمته وبدون استثناء.

- القاعدة الثانية أن يتحرر عالم الاجتماع بصفة مطردة من كل فكرة سابقة، بممارسة الشك المنهجي قصد الوصول إلى اليقين كما قال ديكارت (Descartes).
- القاعدة الثالثة دراسة الوقائع المجتمعية التي تشترك في خواص معينة دراسة علمية موضوعية، بملاحظتها، وتصنيفها، وتفسيرها.
- القاعدة الرابعة في دراسة الظواهر المجتمعية التي تتميز بالتكرار، والاطراد، والعمومية، والجبرية، والالتزام بملاحظتها خارجياً، بعيداً عن العوامل الفردية والسيكولوجية.

- القاعدة الخامسة هي التفريق بين الظواهر المجتمعية السليمة وبين الظواهر المجتمعية المعتلة.
- القاعدة السادسة هي تصنيف المجتمعات من حيث البنية والوظيفة.

– أما خطوات منهج دوركايم في علم الاجتماع فيمكن حصرها بالنقاط التالية :

١– دراسة مكونات الظاهرة وتحديد عناصرها الأساسية لكي يتمكن الباحث من فهمها.

٢– دراسة أشكال الظاهرة في كل مرحلة من مراحل تطورها لربط ماضي الظاهرة بحاضرها بطريقة منطقية.

– دراسة علاقة الظاهرة بالظواهر الأخرى المشابهة وغير المشابهة لها.

– الاستفادة من منطق المقارنة بين الظاهرة والظاهرة الأخرى.

– التعرف على الوظيفة التي تؤديها الظاهرة الاجتماعية وتطوير تلك الوظيفة في مختلف المراحل التي تمر بها الظاهرة الاجتماعية.

– تحديد القوانين التي يتم استخلاصها من الدراسة بصورة دقيقة باعتبارها الهدف الرئيسي للعلم. وقد تصاغ هذه القوانين في صور كمية تعبر عن الظاهرة بالأرقام أو في صور كيفية تحدد الخواص والصفات العامة والدعائم الأساسية التي تقوم عليها الظاهرة. وهذا كله لابد أن يؤدي إلى رفع قيمة وفاعلية علم ما بين غيره من العلوم الأخرى. وإلى جانب اهتمام المنهج عند دوركايم بالطريقة التاريخية فإنه يهتم أيضاً بطريقة المقارنة ويعتقد دوركايم بأن البحث عن العلاقات السببية بين الظواهر الاجتماعية ليس إلا جانباً مهماً من الجوانب التي يهتم بها علم الاجتماع لذلك حاول أن يطور منهجاً وظيفياً يلاءم دراسة الظواهر الاجتماعية، علماً بأن النزعة الوظيفية عند دوركايم هي بديل للمنهج الغائي الذي تكشف كتابات كونت وسبنسر، وهكذا نجد أن لدوركايم جهد كبير في بناء وتحديد منهجية خاصة بعلم الاجتماع بعيدة عن المناهج المتبعة في العلوم الطبيعية.

– الظاهرة الاجتماعية عند دوركايم: " هي كل ضرب من السلوك ثابت كان أم غير ثابت. يمكن أن يباشر نوعاً من القهر الخارجي على الأفراد أو هي كل سلوك يعم المجتمع بأسره، وكان ذا وجود خاص مستقل عن الصور التي يتشكل بها في الحالات الفردية ".

ونستطيع أن نستخلص من هذا التعريف خصائص الظاهرة الاجتماعية، وهي كالتالي:

• الظاهرة الاجتماعية هي ظاهرة موضوعية لها وجود خاص خارج شعور الأفراد الذين يلاحظونها ويحسون بها لأنها ليست من صنعهم بل يتلقونها من المجتمع الذي تنشأ فيه.

• الظاهرة الاجتماعية ليست هي وليدة التفكير الذاتي عند الأفراد.

• الظواهر الاجتماعية هي ظواهر شيئية وهذه الخاصية هي التي اعتمد عليها دوركايم في تأسيس علم الاجتماع ذلك انه شبه حقائق العالم الاجتماعي بحقائق العالم الخارجي .

- الظواهر الاجتماعية هي أشياء خارجية بالنسبة لشعور الأفراد. فالفرد يقبل الظاهرة ويخضع لها ويستسلم كما لو كانت قوة خارجية.
- للظاهرة الاجتماعية صفة الإلزام أو القهر. أي تفرض نفسها على شعور وسلوك الفرد.
- الظاهرة الاجتماعية هي ظاهرة إنسانية تنشأ بنشأة المجتمع الإنساني.
- تمتاز الظاهرة الاجتماعية بأنها تلقائية أي من صنع المجتمع ومن خلقه.
- الظاهرة الاجتماعية هي ظاهرة عامة وعمومية الظاهرة ناجمة من صفة القهرية.
- تمتاز الظاهرة الاجتماعية بصفة الترابط. بمعنى أن كل ظاهرة اجتماعية مترابطة مع الظاهرة الأخرى.

٥- فكرة الضمير الجمعي عند دوركايم:

يعتبر أحد المفاهيم الكبرى لدى دوركايم أما من حيث القانون والأخلاق والضبط الاجتماعي فهناك ولاء ملحوظ **للضمير الجمعي** الذي **يعني** " **مجموعة من المعتقدات والعواطف العامة بين أعضاء المجتمع والتي تكون نسقاً خاصاً ومثل هذا الضمير له وجوده الخاص المتميز فهو يدوم عبر الزمن ويعمل على توحيد الأجيال** "، والضمير الجمعي يعيش بين الأفراد ولكنه يتميز بالقوة والاستقلال وبخاصة حينما تزداد درجة التشابه بين الأفراد. وتعكس دراسة الضمير الجمعي عند دوركايم نظريته عن القهر الاجتماعي. وترتبط معالجته للظواهر الاجتماعية ارتباطاً وثيقاً بمناقشة الضمير الجمعي، حيث يعد المفهوم من مفاهيم دوركايم الرئيسية حيث عرفه بأنه : "**مجموعة من المعتقدات والعواطف المشتركة لدى متوسط أعضاء المجتمع الواحد والتي تشكل نظاماً اجتماعياً محدداً له حياته الخاصة به** ".

يعتمد الضمير الجمعي في وجوده على الأحاسيس والعواطف والمعتقدات الموجودة في الضمير الفردي. وبالتالي أوضح أن هناك ارتباطاً ذا تأثير متبادل بين الضمير الجمعي والأفكار الاجتماعية في الواقع الاجتماعي نتيجة الضغوط التي يمارسها الضمير الجمعي على أعضائه.

٦- تقسيم العمل عند دوركايم:

يعتقد دوركايم أن ظاهرة تقسيم العمل ليست حديثة النشأة ولكن الجانب الاجتماعي منها كان أكثر ظهوراً في أواخر القرن الثامن عشر ولقد تطورت إلى الحد الذي جعلها عامة وواضحة لكل فرد ولعل الاتجاه الذي اتخذته الصناعة الحديثة يكشف لنا بوضح مدى عمومية وانتشار هذه الظاهرة، والصناعة تهدف إلى تقسيم العمل إلى أبعد الحدود وأصبحت المهن منعزلة متخصصة ليست فقط داخل المصنع بل أصبح كل إنتاج في حد ذاته متخصصاً من ناحية ومعتمد على غيره من ناحية أخرى كذلك في معظم قطاعات المجتمع سواء في الوظائف الإدارية أو العلمية أو غيرها ونجد شبيهاً لذلك أيضاً في الكائنات العضوية والمجتمعات. ويذهب دوركايم أنه لكي نصل إلى تعريف موضوعي لتقسيم العمل لابد من ملاحظته ومقارنته ودراسته كحقيقة موضوعية ولما كان تقسيم العمل يتضمن كل من القوة الإنتاجية وقدرة العامل لذلك فهو شرط ضروري لتقدم المجتمعات سواء أكان فكرياً أو مادياً،

والوظيفة الأساسية لتقسيم العمل أنه يخلق شعوراً بالتضامن والتماسك والترابط بين الأفراد علاوة على ذلك له أثر ملحوظ وواضح في زيادة الوظائف المقسمة المتخصصة.

يختلف تقسيم العمل باختلاف حجم المجتمع وكثافة السكان وشدة التفاعل الاجتماعي فازدياد السكان عامل أساس لتقسيم العمل ويعتبر كتابه تقسيم العمل أهم النصوص المنهجية في علم الاجتماع، التي حللت التصورات الطارئة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لذا خصص دوركايم الكتاب ليوضح رأيه في إمكانات تطبيق المقاربة الوظيفية من مبدأ يعتبر الوظيفية مبدأ نسبياً منهجياً. وهو يرى أنه قد ترتب على تقسيم العمل شدة الصراع من أجل البقاء والاستمرار، فكثرة العدد تفرض على الأفراد ضرورة التخصص المهني مما يقلل من حدة الصراع ويتيح فرصة أوسع للحصول على وسائل الحياة.

وعن الوظيفة الإيجابية لتقسيم العمل يرى دوركايم أن تقسيم العمل وما يترتب عليه من تباين بين الأفراد يعمل على تدعيم نوع من التماسك المتبادل في المجتمع وينعكس هذا التساند المتبادل على العقلية الإنسانية والأخلاقيات، كما أنه يبرز في ظاهرة التضامن العضوي ذاتها. وكلما ازداد هذا التضامن رسوخاً قلت أهمية الضمير الجمعي. وهكذا يستبدل القانون الجنائي القائم على جزاءات رادعة بقانون مدني إداري يهدف إلى حفظ حقوق الآخرين بدلاً من العقوبة.

٧- مفهوم التضامن الاجتماعي عند دوركايم:

يعتبر من أهم القضايا التي عالجها دوركايم في إطار تحليله لظاهرة تقسيم العمل والتخصص خاصةً تصوراته حول دراسة التغيرات التي حدثت في المجتمع الصناعي الحديث، حيث تصور وجود شكلين أساسين من التضامن بين أفراد المجتمع يعكسان بصورة أساسية نظريته نحو التطور والتغير الاجتماعي، وهما كالآتي:

١- **التضامن الآلي *Mechanical Solidarity*:** يوجد هذا النوع من التضامن في المجتمعات التقليدية (البسيطة) التي يتضاءل فيها نظام تقسيم العمل، مما يحدث نوع من التماثل والتشابه بين أنماط العمل السائدة في هذه المجتمعات.

يتم هذا التضامن عن طريق العادات والتقاليد والعواطف المشتركة بينهم، تلك العناصر التي تسمى بروابط الضمير الجمعي، والتي تعمل على إرساء طابع التكامل الاجتماعي، الذي يعتبر العامل الأساسي في وجود العلاقات والتكامل بين الأفراد والمجتمع. ويرى

دوركايم أن المعايير الاجتماعية ونوعية الجزاءات باعتبارها قوة ضاغطة، تمارس نوعاً من القهر والإجبار في إتمام عملية الضبط الاجتماعي، كما تحدث نوعاً من التماسك الاجتماعي الذي يظهر عن طريق الإحساس المشترك بالوعي الجمعي والانتماء إلى المجتمع، وعموماً هذا النوع من المجتمعات يتميز بالتجانس الاجتماعي.

٢- **التضامن العضوي *Organic Solidarity***: يشير إلى طبيعة المجتمعات الصناعية الحديثة، حيث التضامن فيها يقوم أساساً على مبدأ تقسيم العمل والاتجاه نحو المزيد من التخصص في المهن والوظائف، واستقلالية الفرد الذاتية عن الجماعة التي ينتمي إليها. فكل عضو في المجتمع يسعى إلى تحقيق أهدافه الخاصة، وينعكس ذلك على وجود الاختلافات بين الأفراد وآرائهم واتجاهاتهم وسلوكهم، أما عن عملية الضبط الاجتماعي فإنها تتجسد من خلال مؤسسات الدولة القانونية الرسمية بعيداً عن الأعراف والعادات والتقاليد، حيث تتسم العلاقات الاجتماعية بالشخصية. وعلى العموم، يظهر هذا المجتمع

نتيجةً لزيادة التصنيع والتنوع في النشاطات الاجتماعية، والسياسية، والتعليمية، والدينية، وإلى زيادة التخصص وتقسيم العمل ووجود النزعة الفردية، ويتميز هذا المجتمع عموماً باللاتجانس الاجتماعي.

٨- دراسة دوركايم لظاهرة الانتحار:

تشغل دراسة دوركايم عن ظاهرة الانتحار ١٨٩٧م مكانة هامة في الدراسات السوسيولوجية، ويعتبر كتابه عن الانتحار باجتماع معظم علماء الاجتماع كتاباً رائداً في تطبيق المنهج الإحصائي (الكمي) في دراسة الظواهر الاجتماعية، وهم يرون أنها أكثر ما تكون دراسة إحصائية، لأنه أوضح أهمية البيانات التجريبية في دعم موقف نظري معين.

* تعريف **ظاهرة الانتحار**: على العموم يُعرف الانتحار بأدبيات علم الاجتماع على " أنه تعاطي الموت بطريقة قصدية، إذ يعتبر كرد فعل فردي رغم أنه يأخذ طابع اجتماعي أكثر. وعلى هذا الأساس يعد الانتحار ظاهرة اجتماعية مرتبطة بظروف اجتماعية تمس كل المجتمعات

". أما دوركايم فيعرفه " **بأنه كل حالات الموت الناتجة بطريقة مباشرة وغير مباشرة عن فعل إيجابي أو سلبي قام به الشخص المنتحر وهو يعلم أنه سيؤدي إلى هذه النتيجة** ".

وبالرغم من أن عملية الانتحار عملية شخصية بحتة إلا أنها لا تخرج عن نطاق المجتمع الذي يعيش فيه المنتحر إذ أن القوى الاجتماعية المحيط به وليس حالته النفسية هي التي تدفعه إلى قتل وتدمير ذاته، ويضيف دوركايم قائلاً بأن التناقضات والأخطاء التي قد تظهر في البناء الاجتماعي لابد أن تكون عاملاً من عوامل تفاقم مشكلة الانتحار، فكلما كان الأفراد منسجمين مع المجتمع ومتكيفين لعاداته وتقاليده وظروفه كلما تنخفض فيه نسبة الانتحار والعكس هو الصحيح.

لهذا السبب نرى بأن نسبة الانتحار عالية في المجتمعات لصناعية المعقدة ومنخفضة في المجتمعات الزراعية البسيطة التي تتكون من جماعات تربط أفرادها علاقات ايجابية ومتكاملة .لهذا يشير دوركايم إلى أن نسب

الانتحار تكون عالية في المدن ومنخفضة في القرى والأرياف، وتكون عالية بين العزاب ومنخفضة بين المتزوجين لاسيما هؤلاء الذين لديهم أطفال ،وتكون عالية بين المسيحيين البروتستانت ومنخفضة بين اليهود والمسلمين ،وأخيرا تكون نسبة الانتحار بين العسكريين أعلى من المدنيين .

– أنواع الانتحار عند دوركايم:

١– **الانتحار الأناني:** هو انتحار الذي يرتكبه الفرد عندما يميل إلى حصر تفكيره بنفسه وإلى عدم اندماجه مع جماعته وإلى كون رغباته لا تكون مرتبطة بالأهداف الاجتماعية أو خاضعة لسلطة الالتزامات الاجتماعية التي تفرضها حياة الجماعة. بمعنى آخر يحدث هذا الانتحار عندما يكون المنتحر غير مندمج بشكل تام وكافي في المجتمع أي منعزلاً عنه يعيش مع ذاته لتفاعل معها فقط، بذلك تكون أسبابه أسباب فردية أو شخصية، فهو يؤمن بقدراته الخاصة على تحديد مصيره، ويكون تحت تأثير عوامل أسرية، ومن أمثلته: (ظاهرة التفكك الأسري).

٢- **الانتحار الغيري (الإيثاري)**: هو الانتحار الذي يرجع إلى شدة اندماج الفرد في الجماعة حتى أنه يفقد فرديته، ويفسر هذا الاندماج نفسياً بشدة شعور الفرد بالواجب إزاء جماعته حتى أنه يصبح مستعداً أن يضحي بحياته من أجل الجماعة إذا كانت هذه التضحية ضرورية. ويقول دوركايم أن هذا النوع من الانتحار يوجد غالباً في المجتمعات التي تتميز بالتضامن الآلي. أي أن المجتمع هنا يدفع الفرد للانتحار. ويطلق دوركايم على هذا الشكل من الانتحار الغيري الإجباري، فالموت مفروض من طرف المجتمع على أساس أنه واجب حيث يتأثر هذا النوع من الانتحار بالقهر الاجتماعي ومن أمثلته: الفداء والضحية وموت الجندي في المعركة، بانتحار بعض القادة في بعض البلاد عندما يخسرون إحدى المعارك، كما يتمثل بالهجمات الانتحارية التي قام بها الطيارون اليابانيون (كاميكازي) ضد سفن الحلفاء في المحيط الهادي إبان الحرب العالمية الثانية.

٣- الانتحار اللا معياري (الفوضوي): يحدث عندما تضطرب ضوابط المجتمع بسبب نقص المعايير الاجتماعية أو بسبب الفوضى الجماعية في مجتمع ما. ففي هذا النوع من الانتحار يرى دوركايم أنه يحدث نتيجة وجود خلل اجتماعي بسبب غياب المعايير الاجتماعية، وهذا يؤدي بطبيعة الحال إلى زيادة نسبة المقبلين على الموت بطريقة قصدية، فالفوضى هي عرض مرضي مرده التغير الحاصل بالعادات والأعراف الاجتماعية، حيث إن هذه الأخيرة لم تعد قادرة على تأطير العمليات الاجتماعية. ويعتقد دوركايم أن هذا النوع من الانتحار هو خاص بالمجتمعات الحديثة حيث ارتفاع معدلات الفوضى، وبالتالي تصبح تلك المجتمعات أحد المصادر الثابتة التي يتغذى عليها هذا الانتحار.

ومن أمثلته: الاضطرابات إيجابية التي تصيب المجتمع ما كحالات (الانتعاش الاقتصادي مثلاً) أو سلبية (الكساد الاقتصادي)، كلا النوعين من هذه الاضطرابات يؤدي إلى التعطيل المؤقت للجماعة عن أداء دورها

السلطوي على الأفراد، ففي فترات الاضطرابات يطلق العنان لتيارات اللامعيارية لتنمي الإحساس بانعدام الجذور وانعدام المعايير وتقود حتماً إلى زيادة معدلات الانتحار المعياري، ففي حالات الكساد مثلاً عند إغلاق مصنع نتيجة للركود الاقتصادي ربما يؤدي ذلك إلى فقدان فرصة العمل ونتيجةً لهذا الوضع ينقطع الفرد عن تأثير ضوابط الشركة والعمل ليترك فريسةً لأثر التيارات اللامعيارية.

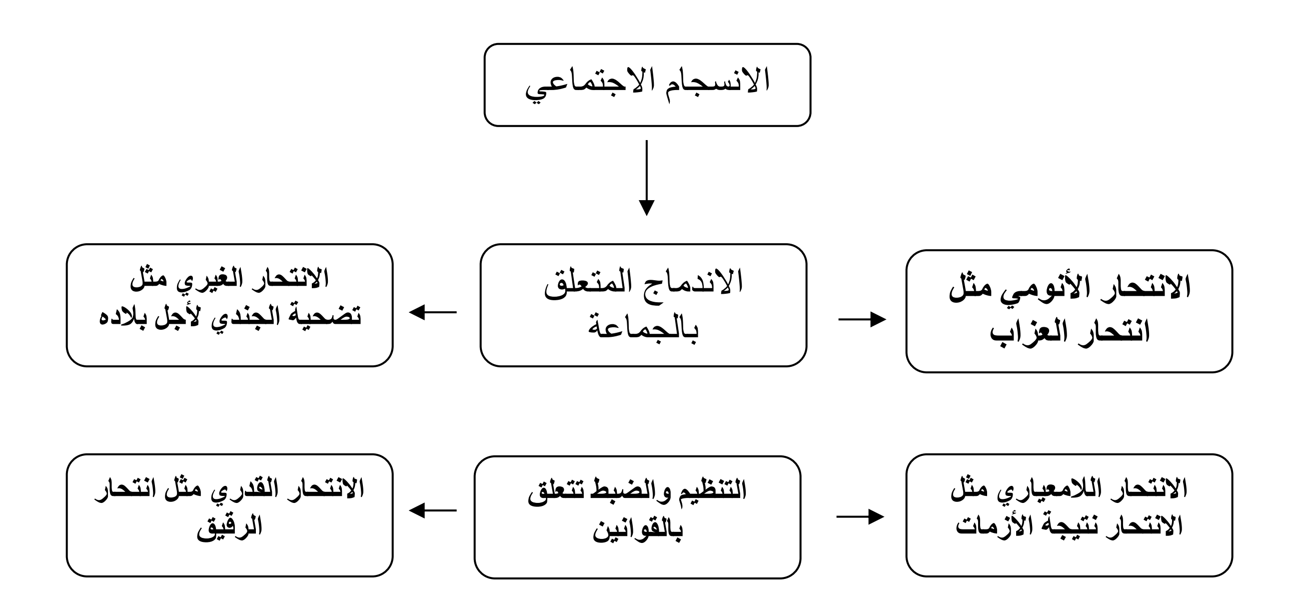
أما في حالات الانتعاش الاقتصادي يمكن القول أن النجاح المفاجئ ربما يقود الأفراد بعيداً عن البنيات الاجتماعية التقليدية التي نشأوا فيها. مثال ذلك ترك الفرد لعمله والانتقال إلى مجتمع جديد ربما يتخذ زوجة جديدة. كل هذه التغيرات تؤدي إلى اضطراب بأثر ضوابط البنيات الموجودة وتترك الفرد في فترات الانتعاش الاقتصادي فريسة للتيارات الاجتماعية اللامعيارية. كذلك الأثر الضار لنزوات الفرد عندما يتحرر من القيود الخارجية، فعندما يتحرر الناس يصبحون عبيداً لنزواتهم، ونتيجة لذلك يرى

دوركايم أنهم يقومون بسلسلة واسعة من الأفعال المدمرة تشمل قتل أنفسهم في أعداد أكبر مما هو معتاد.

٤- **الانتحار القدري:** وهو الانتحار الذي ناقشه دوركايم في إحدى حواشي كتابه (الانتحار). يحدث الانتحار القدري في الحالات التي تكون فيها الضوابط متجاوزة للحد المرغوب فيه. وصف دوركايم الذين يرتكبون فعل الانتحار القدري بأنهم أشخاص مستقبلهم مغلق بقسوة ونزواتهم خنقت بعنف عن طريق نظام قهري المثال التقليدي هو الرقيق الذى يقتل نفسه بسبب عدم الأمل المصاحب للضوابط القاهرة لكل أفعاله. الزيادة في الضوابط – القهر – تطلق العنان لتيارات السوداوية والتي بدورها تتسبب في ارتفاع معدلات الانتحار القدري.

وفي النهاية يمكن لنا عرض مختلف أنواع الانتحار حسب دوركايم من خلال الشكل الآتي، حيث يتم فيه التأكيد على مسألة الانسجام الاجتماعي وذلك بوضع علاقة بين مختلف أشكال عدم اتزان الرابطة الاجتماعية ونسب الانتحار، فنموذج الانتحار الذي اقترحه دوركايم

يرتكز على متغيرين اجتماعيين هما: الاندماج والتنظيم أو الضبط (المعايير والضوابط).



٩- وضعية إميل دوركايم والإيديولوجيا:

أما عن الخلفيات الإيديولوجية لوضعية دوركايم، فتتمثل في الحفاظ على الواقع الوضعي العلماني، ومحاربة اللاهوت باسم العلم والتجريب والعقل.

وفي هذا الجانب نجد أن عمل دوركايم سينطلق من حيث انتهى أستاذه (أوغست كونت)، فهو دخل في صراع حاد مع النظام الديني، ولكنه كان صراعاً عملياً أكثر منه نظرياً، وركز على ترجمة المبادئ النظرية الوضعية إلى خطة عملية أو مشروع تربوي شامل ينتهي به إلى علمنة المجتمع فرداً وجماعة وسلوكاً. وهو يحتمي في كل ذلك بالعلمية والتطبيق الصارم للقوانين الاجتماعية التي لا تقبل النقض. بهدف الوصول إلى إثباتات علمية لها من اليقين بقدر ما للعلوم الطبيعية وهي حجة طالما وظفها دوركايم لتمرير نتائج بحوثه، وجعلها تجد سبيلها إلى عقول المواطنين دون مقاومة. ونظراً لهذا الدور الخطير الذي قام به دوركايم في تثبيت النظام الوضعي، نجد المؤرخين لعلم الاجتماع يقررون أن عمل دوركايم

يعتبر في الحقيقة أكبر مجهود مذهبي عمل على تحرير علم الاجتماع من اللاهوت والفلسفة والسياسة. وإنه أراد في نهاية الأمر أن يقلب الأدوار لتجد في علم الاجتماع التفسير الوحيد لعلم اللاهوت والفلسفة.

وقد استطاع دوركايم أن يقلب الأدوار فعلا فقد أصبح علم الاجتماع معه يقوم بدور التوجيه العلماني لكل المؤسسات التي كانت خاضعة للتوجيه الديني.

ويعني ذلك أن إميل دوركايم كان ينطلق من فلسفة وضعية علمانية تجريبية، تفصل الدين عن الدولة، كما تفصله عن العلم. أي لم يكن دوركايم يولي الدين أو الأخلاق أو القيم أية أهمية في دراسة المجتمع وظواهره المختلفة.

وخلاصة القول: يتضح لنا، مما سبق قوله، أن إميل دوركايم هو المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع في منظوره التجريبي والوضعي، ما دام هذا العلم مبنياً على مجموعة من الخطوات العلمية المقننة الصارمة. ويكفيه فخراً أن حدد لهذا العلم مجموعة من القواعد والشروط المنهجية،

ليتبوأ هذا العلم المستقل مكانته اللائقة به بين باقي العلوم والمعارف الأخرى.

١٠- الانجازات التي قدمها دوركايم لعلم الاجتماع:

تكمن أهمية إسهامات دوركايم في علم الاجتماع، بأنها أضفت على هذا العلم طابع الشرعية الاكاديمية. واصطبغت تحليلاته بالأفكار العلمية وتناوله لكثير من المشكلات والقضايا الوظيفية، وهذا ما تمثل في منهجيته الوضعية التي ركز عليها دوركايم عند تحديده لقواعد المنهج لعلم الاجتماع، وتنحصر إسهاماته فيما يلي:

١- عزز دوركايم النزعة الوضعية التي أرسى قواعدها كونت إلا أنه وضع الجذور العلمية الأولى للاتجاه البنائي الوظيفي الذي حدد وبصورة مميزة، ما ينبغي أن تكون عليه عملية دراسة وتحليل الظواهر الاجتماعية وكيفية معالجتها باعتبارها حقائق ملموسة.

٢- اسهم دوركايم بتحليلاته السوسيولوجية المميزة أن يضع له منهجية سوسيولوجية واضحة المعالم والأفكار،

مما أدى إلى تبني بعض علماء الاجتماع البارزين نفس المنهج الدوركايمي في التحليل والتفسير.

٣- أكد على ضرورة فهم الظاهرة الاجتماعية من خلال مسبباتها ومتغيراتها الاجتماعية (التفسير السوسيولوجي فقط) مما أدى إلى تدعيم فكرة استقلالية علم الاجتماع عن العلوم الأخرى.

٤- استخدم المنهجية العلمية التي اعتمدت على لغة الكم في فهم الظواهر الاجتماعية عندما استخدم المنهج الإحصائي الذي أعطى تكاملا لفهم الظاهرة في علم الاجتماع.

٥- توظيف الملاحظة والتجربة كطرق منهجية في فهم الظواهر الاجتماعية.

٦- اكتشافه لمفهوم الضمير الجمعي وتوظيفه في فهم وتحليل وتفسير الظواهر الاجتماعية.

٧- تأكيده على فكرة الموضوعية والحياد الأخلاقي بمعنى وصف الأشياء كما هي في الواقع بعيداً عن ذاتية الباحث في الدراسة.

١١- الانتقادات الموجه لأفكاره وتحليلاته:

في حقيقة الأمر تنحصر الانتقادات الموجه إليه، فيما يلي:

١- تبني النزعة الإيديولوجية المحافظة التي تتصف بها المدرسة السوسيولوجية التقليدية كموجه أساسي لكل دراساته وتحليلاته. وهذه النزعة تركز أفكارها حول طبيعة الحياة الاجتماعية ومشكلاتها الواقعية، ومحاولتها الوصول إلى قوانين أو تعميمات يمكن أن تطبق على كافة المجتمعات أو دراسة الظواهر والقضايا والمشكلات الاجتماعية دون الأخذ بعين الاعتبار طبيعة المتغيرات التاريخية والاجتماعية.

٢- التفسيرات أحادية البعد يتضح ذلك من خلال تحليلات دوركايم ولا سيما حول الظاهرة الاجتماعية، حيث جاءت معظمها تؤكد على الجانب الاجتماعي فقط والعمل على تجنب التفسيرات السيكولوجية والاقتصادية والبيولوجية. وبالأخص في دراسته لظاهرة الانتحار.

٣- الغموض وعدم الوضوح ولا سيما في تصوراته حول التضامن الاجتماعي وخاصة في المجتمعات التقليدية، حيث جعل من الفرد مجرد آلة تقوم بعملية التضامن الاجتماعي، دون الإشارة إلى كيفية حدوث هذا التضامن الذي يتم بطريقة تلقائية وجبرية، كما لم يشير إلى طبيعة المصالح التي تربط الأفراد في مجتمعاتهم وطبيعة رغباتهم في الحياة والعيش داخل جماعة، التي تغطي لهم كل الاحتياجات وتقوم بإشباعها بصورة مرضية.

٤- إن معالجة دوركايم لظواهر الاجتماعية واعتبارها من أسمى أهداف علم الاجتماع ووظائف، لم تحدد ماهية هذه المعالجات، هل هي وضعية أم براغماتية. كما أدت مبالغة دوركايم في وصف دراسة الظواهر الاجتماعية بوصفها أشياء خارجة عن الفرد التركيز على الوصف والدراسة الكمية فقط، على حساب التحليلات الكيفية والمقارنة.

٥- إبراز سمة التجانس والتكامل والتعاون للظواهر والأحداث دون الإشارة إلى ما يكتنفها من صراع وتغير وثورة.

٦- المبالغة في التأكيد على أهمية الضبط الاجتماعي، والتنشئة الاجتماعية والأخلاقية والنظام التربوي في حل المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية والأخلاقية. مما جعل أفكاره تتسم بالطابع اليوتوبي ودليل ذلك أنه رفض فكرة الصراع بشكل كلي كأسلوب للتغيير والحل الجذري للمشكلات، هذا اعتبر فكرة الصراع مجرد نوع من فقدان اللامعيارية (الفوضى).

وفي نهاية يمكننا القول أن تلك الانتقادات لا تقلل من أهمية الفكر السوسيولوجي لدوركايم الذي اسهم إلى حد كبير في استقلال علم الاجتماع عن العلوم الأخرى، وفي تحديد موضوع ومنهجية هذا العلم بصورة دقيقة لا نظيرها لها في الفكر السوسيولوجي.